قال: حقٌّ كل الحق، وسأريكِ إذا زرتِني في المنزل صور التماثيل التي يعدونها في العالم بأسره نماذج لجمال الأنوثة، فإن تماثيل الزهرة التي صنعها اليونان — وهم أساتذة الذوق السليم — ليست على نحافةٍ ولا ودقةٍ في الخصور والأطراف، ولكنها مثال الجسم المتين المنسوق. وسيفسد علينا سماسرة البدع الحديثة تنويع الجمال في بنات حواء. فأين نرى البضاضة والسموق إذ أصبح النساء وكلهن نحيفات هزيلات؟ وكيف تتعدد القوالب إذا كانت المرأة لا تُخلَق لنا إلا في قالبٍ واحدٍ؟

وسرَّها ما سمعت فسألته عفوًا: أيعجبك إذن هندام جسمي على ما هو عليه؟

قال متماجنًا: ومن أين لي أن أحكم؟

ثم أحجم عن التمادي في هذه النغمة، وأيقن أنهما في هذه الخفة التي يشعران بها ليستطيعان أن يتحدثا عن الموت كما يتحدثان عن الرقص واللهو والمجانة، وأَحَبَّ أن يتحول الحديث إلى قصة الزواج التي وعدته أن تقصها عليه، والتي يتوقف على فهمه إياها أن يفهم مدى العلاقة التي ستجمعه بهذه الفتاة الجالسة في تلك الساعة أمامه، فقال وهو لا يحذر من تنغيصها باستطراده: إن كنتِ لا ترضين زوجًا بالتماس النحافة فعلامَ كل هذا العناء؟ أهناك رجل آخر؟

وصحَّ ما قدَّره همام، فكان جوابها على نغمة الخفة التي شملت في تلك الساعة كل شيء، وقالت: أوَتحسب أن المرأة لا تتزين إلا لزوجٍ أو حبيبٍ؟ إنها لتتزين لنفسها، وإنها لتتزين للرجل الذي في عالم الخيال، ولو لَمْ يكن له في عالم الواقع وجود.

واسترسلت تتهكم كأنما سألت نفسها وهي تسأله: أأرضي زوجًا؟ ألا ليت هذا كل ما يعنيني! … إذن لأكلتُ قنطارًا من الأرز والزبدة كل يوم!

واجتازت النقلة بين إرضاء الزوج وقصة الزواج في جملةٍ أو جملتين، ثم انقضى نصف ساعة علم فيه همام صفوة ما أرادت أن يعلم، فلو سأله سائل: أصدَّقها في جميع قولها؟ أعذرها في جميع فعلها؟ لكان من الصعب عليه أن يجيب بالإيجاب.

بيد أنه أدرك مما سمع أنها طفلة فقدت رحمة الأمومة، ونمت وهي لا تعرف إلا جماح الحيوية العارمة لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها التقاليد الضعاف، مع ذلك الذكاء الوقَّاد الذي لا تخفى عليه خافية الموانع والمحظورات، وأنها لو سيقت إلى زوجٍ «يملأ عينها» ويحقق معنى الرجولة في رأيها وعاطفتها لاستقرت بعض الاستقرار وقنعت بعض القنوع، ولكنها أخطأت حظها من الزواج، وبرمت بفراغ قلبها فلم تعذر الدنيا، والتمست لقلبها وحده جميع الأعذار.